الفصل التاسع
مستقبل الحياة على الأرض

هل يمثل الإنسان المرحلة الأخيرة في التطور أم سيكون هناك خلق آخر بعد الإنسان؟ هل يوجد احتمال لنشوء نوع جديد يتطور عن الإنسان ويتمتع بحواس أفضل أو حواس إضافية، ويستطيع أن يُدرك أبعادًا جديدة مع القدرة على اكتساب ذكاء أعلى مما لديه الآن؟ وأيضا.. هل من الممكن أن تظهر هذه الأنواع الجديدة في هيئة وشكل مختلف تماما، ومنهج جديد كلية؟ حسب ما لدينا من معلومات، لم يحدث أن بُحثت هذه الأسئلة في أي دين من الأديان عدا الإسلام.

إن هذا الموضوع كان يبعد تماما عن حيز تفكير الفلاسفة والعلماء في العصور القديمة. وحتى العلم الحديث لا يستطيع مناقشة هذا الموضوع إلا في أضيق الحدود.

ومن المدهش حقا أن يتميز القرآن المجيد في هذا المجال، وأن يثير مثل هذه الموضوعات، ويرد على مثل هذه الأسئلة، ويتناول هذه الإمكانيات. إن موضوع الحياة بعد الموت أمر مختلف، وقد جاءت الإشارة إليه في جميع الأديان العظمى تقريبا. ولكن لم يناقش أي منها إمكانيةَ وجود أشكال أخرى للحياة هنا على الأرض، تنشأ قبل أو بعد يوم الدينونة.

بعد هذا فإننا نرجو أن نُذَكر القارئ بأنه رغم أن الصحف المقدسة الأخرى قد شاركت في أوصاف يوم الدينونة، إلا أن التعبيرات التي استعملها القرآن المجيد أكثر سعة وشمولا في معانيها. وهناك الكثير من النبوءات في القرآن المجيد تتعلق بأحداث مستقبلة، فاتحة لعهد جديد، كمثل الثورات العظمى والاضطرابات الكبيرة في العالم. وقد أشير إليها جميعا أيضا باستعمال نفس الكلمة.. أي (القيامة)، واستعمال اللفظ

المرادف لها.. أي (الساعة). ونفس هذه الألفاظ تستعمل أيضا في التعبير عن تلك الأمور التي تُعرف عامة باسم يوم الدينونة، ويشير إلى نهاية الجنس البشري بأكمله. وهذا هو ما تشترك فيه الصحف المقدسة الأخرى مع القرآن المجيد حين تتحدث عن يوم الدينونة.

وبينما يُفسر أتباع هذه الأديان تعبير "يوم الدينونة" على أنه يعني النهاية العامة الشاملة الكاملة للكون، فإن القرآن المجيد لا يستعمل هذا اللفظ دائما بهذا المعنى. فالقرآن المجيد يعتبر الأرض جزءا صغيرا من الكون الواسع الرحيب، وحدوث اضطرابات على نطاق عالمي واسع يمكن أن يخلق دمارا عظيما قد يضع نهاية لكل أشكال الحياة على الأرض، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن الأرض برمتها سوف تُمحق من الوجود، أو أن هذا سوف يؤدي إلى دمار وانتهاء الكون بأكمله.

وقبل الاستطراد في الحديث عن هذا الموضوع، دعونا نقدم نبذة، من وجهة نظر القرآن المجيد، لما سوف يأتي ذكره في هذا الفصل فيما يتعلق بمستقبل الإنسان هنا على هذه الأرض، أو في أي مكان آخر يمكن أن تتواجد فيه الحياة. هناك بعض الآيات الكريمة التي تذكر أحداثا سوف تحدث في هذا العالم بعد يوم الدينونة. وتذكر بعض الآيات أن هيئة الإنسان سوف تتغير إلى هيئة مختلفة بعد الموت حيث يُبعَث في حياة جديدة. ثم هناك بعض الآيات الأخرى التي تختلف تماما عن الآيات السابقة، وتتحدث عن أمور سوف تحدث في المستقبل بعد يوم الدينونة، ولكن ليس في الحياة الآخرة. وهذه هي الآيات التي تُمثل بوضوح مشهد استمرار النشوء والتطور هنا على الأرض، مما ينتج عنه خلق أنواع من الحياة أعلى وأرقى من الإنسان. ويجب ألا يكون هناك خلط ولا ربط بين هذه الآيات والآيات الأخرى التي تتحدث عن البعث بعد الموت.

ولنبدأ بدراسة الآيات التي تتعلق بالآخرة، والتي تختلف عن الآيات التي تتحدث عن إمكان وجود شكل آخر من أشكال الحياة العاقلة

والجديدة تماما هنا على الأرض. ويوجه القرآن المجيد حديثه مخاطبا أولئك الذين يتشككون في حقيقة موضوع الحياة بعد الموت، فيُذَكر القرآن هؤلاء بأن الأوْلى بهم أن يتشككوا في حقيقة وجودهم أنفسهم هنا على الأرض، أكثر من تشككهم في حياتهم بعد الموت. فهناك أمر واحد هم على يقين منه، وهو أنهم جاءوا إلى هذه الدنيا من عدم مطلق، وهذا العدم هو الذي سبق وجودهم. فإذا كان وجودهم قد تم من عدم، فلماذا يتشككون في إمكانية وجودهم مرة أخرى من شيء هو موجود بالفعل وهو وجودهم الحالي. إن تولدهم مرة أخرى مما هم فيه اليوم لهو أكثر معقولية وأوضح منطقا من تولدهم من لا شيء. وتشكك الإنسان هذا في الحياة بعد الموت هو الموضوع الذي تعالجه الكثير من الآيات القرآنية، ولكن ذكر هذا الموضوع ليس مجرد فتح الباب للمزيد من البحث ومناقشة الموضوع. وليس المقصود منه في ذاته أن يُثبت وجود حياة في الآخرة، وإنما المقصود منه فقط هو تفنيد أيّ تبرير لهذا التشكك. وبالإضافة.. فإن القرآن الكريم يُذَكّر الإنسان أيضا بأن المستوى العالي من الوعي والإدراك الذي وصل إليه كان من الأولى أن يكون سببا في تنويره بدلا من أن يكون سببا لتخبطه في الظلام. كذلك فقد كان من الأوْلى أن يقوده إدراكه لما يحيطه من الموجودات وما وراء ذلك، إلى إقناعه بوجود الخالق الذي يشمخ الإنسان أمامه برأسه في تحد واستخفاف. وإن كان يؤمن بوجود الخالق فإن إنكاره لوجود الحياة الآخرة قد يكون بسبب اندهاشه البالغ لما سوف تكون عليه تلك الحياة، إذ قد يبدو لـــه أنها أعجب من أن تكون حقيقة واقعة. غير أن الواقع يقول بأن الخلق الأول الذي كان من العدم، هو أكثر غرابة وأشد إثارة للعجب وعدم التصديق من الخلق الثاني.

ثم ننتقل إلى ذكر دليل منطقي.. يمهد لـــه القرآن المجيد بقوله إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم على حقيقة وجود الحياة الآخرة عن طريق

المشاهدة، وهو لا يستطيع أن يرى شيئا وراء نهاية الحياة في هذه الدنيا.. سوى العدم المطلق والخواء الفارغ. فانظر إلى حكمة الإنسان: إنه يعلم يقينا أنه وُجد من العدم المطلق، ومع ذلك فهو لا يستبعد هذا الوجود ولا يتشكك في حقيقته. ومع ذلك.. حين يُقال له إنه سوف يُبعث مرة أخرى بعد موته، فإنه يرفض أن يقبل هذا القول، ويعتبره مجرد هراء يخالف العقل. إن هذا الاستدلال المنطقي من القوة بمكان، ولا يحتاج الأمر إلى فيلسوف كبير ليفهم الدليل المنطقي الذي يسوقه القرآن المجيد.

وعلى هذا فليس هناك من شاهد غير الإنسان نفسه، يمكن أن يشهد ضد إنكار الإنسان. وحين يتناول القرآن المجيد هذا الموضوع فإنه يقدم أولا وجهات نظر المكذبين بدقة بالغة ووضوح شديد، ثم يتناول وجهات النظر هذه بالتفنيد بالحجة البيّنة. وفيما يلي بعض الآيات الكريمة التي تناولت هذا الموضوع. يقول تعالى:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۚ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾ (٤٥ الجاثية:٢٥)

ويقول ﷻ:

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۞ إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٣ المؤمنون:٣٦-٣٨)

ويقول أيضا ﷻ:

﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ ءَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ (١٩ مريم:٦٧)

ثم يقول سبحانه:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَّلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۞ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ (١٦ النحل:٣٩-٤٠)

ويقول كذلك:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٣٦ يس:٧٩)

ويقول تبارك وتعالى:

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٥٠ ق:١٦)

وأيضا يقول جل شأنه:

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ (٥٦ الواقعة:٤٨-٤٩)

ثم يقول كذلك:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَى أَنْ نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٦ الواقعة:٦١-٦٣)

وهكذا يُسهل القرآن المجيد للإنسان موضوع تصديق الحياة في

الآخرة، ولكن ليست هذه كل الدلائل على صحة وحقيقة هذا الموضوع. إذ يقول تعالى:

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١ لقمان:٢٩)

وهذه هي الآية التي تقوي الموضوع أكثر وتفتح آفاقا أرحب لمفهوم الإنسان للحياة بعد الموت.

إن ظاهرة البعث ترتبط بظاهرة المولد لكل فرد. فإذا استطاع الإنسان أن يتصور حالته الابتدائية الأولى وهو في مرحلة الجنين، عند اندماج الحيوان المنوي في البويضة، ثم يحاول أن يتصور.. بدءا من تلك الحالة.. إمكانية تكوين المخلوق الذي سوف تتم ولادته في شكل طفل مكتمل النمو، فإنه سوف يجد أنه أمر من المستحيل أن يتحقق. ولنتصور التغييرات المهولة والجبارة التي تحدث في تلك البويضة البسيطة المخصبة والتي تتحول إلى معجزة في شكل طفل يتحرك ويخرج إلى الحياة في خلال تسعة أشهر. إن من لم يشاهد هذا التغيير يتم.. ومن لم ير هذا التحول يتكرر في الواقع، يكون من المستحيل عليه أن يتصور إمكان حدوثه بمجرد النظر إلى المراحل الأولى للجنين حين يتكون من اندماج خلية منوية مع بويضة الأنثى. والحياة بعد الموت تشابه هذه العملية المدهشة – فهي عملية تحول من لا شيء تقريبا إلى هيئة راقية عالية من أشكال الحياة المنظمة.

إن الفرق بين أصل الإنسان حين كان مجرد وحدة حية في الزمن السحيق، وبين ما صار عليه الآن، هو تَحَوّل ضخم عظيم يكاد لا يُصدقه العقل. وبالطبع فإنه من المستحيل على تلك القوالب الأولى للحياة عند بدايتها تصور أن مستقبل التطور سوف يبلغ ذروته في وجود الإنسان، حتى ولو كانت لها قدرة على التصور. إن إدراكها لكينونتها كان ضئيلا للغاية حتى إنه يكاد يكون من المستحيل على البشر الواعي المدرك أن يعتبروه

إدراكا أصلا. وهذه جملة لها مدلولها الكبير، ورغم كلماتها القليلة فإنها تغطي المدى الواسع للتطور من البداية إلى النهاية. وفحوى الرسالة التي تحملها هذه الكلمات هي أن الفرق بين الإنسان في حالته التي هو عليها الآن، وبين حاله عند البعث من الموت، سيكون فرقا شاسعا عظيما، كالفرق بين حال الإنسان عند بدء نشأة الحياة في الزمن السحيق.. عندما كان مجرد وحدة عضوية، وحالته الآن التي آل إليها حاليا. إن التحول الذي سوف يحدث للإنسان تحول عظيم جبار ومهول، ومن المستحيل على الإنسان الآن أن يتصور أو يدرك طبيعة ما سوف يؤول إليه هذا التحول عند البعث بعد الموت. ومع ذلك.. فلا مهرب للإنسان من النتيجة المحتمة، وهي أن خلق الإنسان الأول كان أكثر غرابة وأصعب تصديقا من الخلق الثاني الذي يرفض البعض تصديقه. ربما يستغرق الأمر مليارا من السنين، أو نحو ذلك، للروح بعد بعثها حتى تصل إلى ذروة اكتمال تطورها الروحي. إننا نخرج بهذا الاستنتاج لأن البعث قد شُبه بالمرحلة الأولى لخلق الإنسان من لا شيء. ونحن نعلم الآن أنه لكي يتطور الإنسان من أشكال الأسلاف الأولية للحياة إلى ما هو عليه الآن، قد استغرق على الأقل مليارا من السنين أو يزيد. فإن كان هذا الطور من خلق الإنسان يتشابه مع الطور الثاني بعد بعثه، فليس من المستبعد أن يكون التشابه يشمل أيضا المدى الزمني في الخلق الأول والخلق الثاني.

ولزيادة التدليل على هذه النقطة يسوق القرآن المجيد أسلوبا فريدا في المنطق الاستنتاجي. ونحن لا ننوي هنا أن نستفيض في شرح الموضوع والإشارة إلى الآيات القرآنية المتعلقة به، لأن الكثير من هذه الآيات قد سبق التعليق عليها في فصول أخرى. إننا نريد هنا فقط أن نوضح أسلوب هذا الاستدلال. وحين يتحدث القرآن المجيد عن بعض الأحداث المستقبلة التي تتعلق بهذا العالم، في وقت لم يكن هناك من إنسان يمكن لـــه أن يتصور أو يتخيل وقوعها، فإن القرآن يتحدث أيضا عن الحياة بعد الموت،

أحيانا بأسلوب لـــه معنيان متوافقان. فالنبوءات التي تحويها هذه الآيات يمكن أن تنطبق على أمور في هذه الحياة، كما أنها تنطبق أيضا على أمور في الحياة الآخرة. وعندما تتحقق الأمور المذكورة في هذه الآيات، والتي تتعلق بهذه الحياة، بكل وضوح وبشكل لا يقبل الجدل أو الاعتراض، يصير تحقيق الأمور التي تتعلق بالحياة الآخرة مجرد مسألة وقت. فإن الآيات التي تثبت صحتها فيما يختص بتحقق الأحداث المتعلقة بهذا العالم، لا بد أن تكون موضع ثقة بالنسبة لتحقق الأمور التي تتعلق بالعالم الآخر. هذا كل ما يمكن تقديمه من دلائل عن موضوع الحياة الآخرة، وإلا فليس هناك من سبيل، بل إنه يكون من المستحيل قبل الموت، إثبات أي شيء يتعلق بالآخرة.

وبعد بحث إمكانية نشوء شكل من أشكال الحياة والوجود بعد الموت، فإننا نجد أن بعض آيات القرآن المجيد تتحدث بوضوح عن خلق جديد للحياة هنا على هذه الأرض، تحل محل الحياة البشرية الموجودة الآن وتختلف عنها اختلافا واضحا. يقول تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾

(١٤ إبراهيم: ٢٠-٢١)

ومن الواضح أن هذه الآيات لا تتعلق بالحياة بعد الموت، واستعمال حرف الشرط (إِنْ) الذي يستعمل بمعنى (إِذَا) يشير بوضوح إلى أن المقصود هنا ليس هو الحياة بعد الموت، وإلا فإن هذا الشرط نفسه سوف يضع كل مفهوم الحياة بعد الموت موضع شك، رغم كونه أمرا مؤكدا عليه ويتحدث عنه القرآن المجيد بكل يقين. إن الآية التي نحن بصددها لا تتحدث عن استبدال البشر بآخرين من البشر يماثلونهم، وإنما تذكر بوضوح وجلاء أن الله تعالى سوف يأتي بخلق جديد. وليس المقصود

الذهاب ببعض البشر وإحلال غيرهم من البشر محلهم، فهذه عملية متكررة ولا يحتاج ذكرها إلى شرط يتعلق بمشيئة الله تعالى. إذن فالمقصود هنا هو استبدال الجنس البشري برمته بخلق جديد يختلف عنه.

إن الكون بأكمله قد خُلق بالحق، أي خُلق بما يتفق مع متطلبات ومقتضيات الحق. وكذلك أيضا كان خلق الإنسان.. الذي يُعتبر ذروة وسنام الخليقة. وبالإضافة إلى الحديث عن موضوع الحياة بعد الموت، فإن القرآن المجيد يتحدث أيضا عن موضوع آخر يختلف تماما عنه، وهو موضوع خلق آخر يستبدل الله به البشر، إذ يقول تعالى:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ (٧٦ الإنسان:٢٩)

ويقول أيضا:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ۞ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (٧٠ المعارج:٤١-٤٢)

إن الخلق الجديد الذي سوف يستبدل الله تعالى به الإنسان ليس هو مجرد "قوم" آخر من الأقوام، وليس هو مجرد جيل آخر من الأجيال البشرية. وأما استعمال حرف الشرط فيعني أنه إذا أصلح الإنسان من نفسه وعمله، فلن يكون من الضروري أن يُقضى على الجنس البشري بأكمله، ليُستبدل بنوع آخر خير منه.

يتبين من هذا أن القرآن المجيد يقول بإمكان نشوء أشكال أخرى من الحياة تكون أكثر تقدما، وقد يكون لها من الحواس ما هو أكثر دقة وأوسع مجالا، أو ربما تكتسب حواسا جديدة بالإضافة إلى الحواس الخمس التي يتمتع بها البشر الآن. ورغم أن القرآن المجيد لا يُصرّح بالقطع أن هذا أمر

حتمي الحدوث، إلا أنه يؤكد على قدرة الله سبحانه على إحداث هذه التغييرات، إذا شاء ذلك حسبما يقتضيه تقديره في الخلق. فالقرآن لا يقول بمفهوم عن تطور أعمى يقوم على حوادث عشوائية. إن إمكانية استمرار التطور، كما يذكرها القرآن المجيد، هي إحدى الدلائل العظمى على مدى اتساع حكمة وعظمة قدر علم مُنَزِّل هذا الكتاب ﷻ. كما أن ذلك يُثبت أيضا أن كل ما قيل عن الكتاب العزيز في الفصول السابقة عن نشوء الحياة وتطورها لا بد وأن يكون صحيحا، وإلا لما ذكر القرآن إمكانية تطور الإنسان إلى نوع آخر من الخليقة – وهو موضوع لم يسبق بحثه في أية كتب علمانية أو دينية. فإن مثل هذه الموضوعات لم تكن لتصدر إلا من مستوى عال من العلم المطلق واليقين الحق.

إننا قد لا ندرك تماما ما تعنيه إمكانات استمرار تطورنا، أو أن سلسلة جديدة كلية سوف تبدأ مرة أخرى بداية جديدة في رحلة التطور. إن إدراكنا يمكن أن يصل فقط إلى الخط الذي يحيط بدائرة معلوماتنا الحالية، وأما هذه الأمور فهي تظل بالنسبة لنا جزءا من عالم الغيب. غير أن المجهول يتحول باستمرار إلى معلوم أو إلى ما هو مفهوم، فهذه هي الوسيلة الطبيعية في التعلم. إن الله تعالى هو رب كل ما هو معلوم وكل ما هو مجهول، وهو عالم الغيب والشهادة. وهو سبحانه يوَسع بالتدريج آفاقنا حتى يمكن أن تزداد دوما لدينا قوة البصيرة، لنرى غدا ما يبدو اليوم مغلفا في طيات ستائر الظلام.